قصة

انتقام ..!

للاستاذ محمد مجذوب

كانت الشمس تدلف نحو مغربها في بطء رهيب، وكان « عبد الرحيم » لايفتأ يرسل عينيه اليها بين الفينة والفينة في قلق يقض جوانحه وبوده لو تطوى له الارض حتى يبلغ مأمنه من المدينة قبل ان يفارق شعاعها نظره .. ولكن اليأس من هذا الفرج كان قد بلغ مبلغه من نفسه فهو لايجهل أن المرحلة الباقية بينه وبين المدينة تستغرق مسيرة نصف يوم على الراكب الفارغ فكيف به وهو مشغول بهذا القطيع المنتشر بين يديه من الاغنام ، والذي لاسبيل الى اشعاره بحالة الخطر المحدق ليضاعف من نشاطه ولينصرف راضيا عن تطلب الكلأ بين هذه الشعاب والحجارة المبعثرة في طريقه .

لقد ترك عبدالرحيم « حماة » منذ نصف الليل الماضي بعد ان قدر بدقة المسافة التي تفصله عن بلده في الساحل ، وقسم مراحل طريقه كما يفعل القائد الخبير حين يضع خطة الزحف ، فكان مقرراً لديه أن يصل المدينة مع غروب شمس ذلك اليوم مهما اضطر للتساهل مع قطيعه . . ولكن حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر فاذا هو يفقد ثلث الوقت في رعاية الماشية التي كانت من التعب والجوع بحيث لايمكن قسرها على متابعة السفر في المراحل المقررة دون أن يدع لها الفرص الكافية للغذاء والاستجمام .. لذلك كان جزعه بالغاً حين وجد نفسه أصيل اليوم في «جورة الخرامية» وحيدا لايؤنس وحشته سوى ثغاء الحملان وصفير الراعي البدوي الذي يسوقها بين يديه، ولم يكن بحاجة لمن ينبئه بخطر الموقف فهو يعرف هول الخصومة المستعرة بين الجبل والمدينة ويعرف اكثر من ذلك قيمه وجود رجل مثله يسوق كل هذا القطيع من الاغنام فى وقت كهذا الوقت المتأخر من النهار وفي مكان كهذا المكان الذي انتشرت اساطير جرائمه على كل شفة ولسان حتى بات مقررا أنه أخطر بقعة في هذا الجبل وان نفس المدني الذي يجتاز به لا أمل لها بالحياة الا عن طريق المعجزة. فليس إذن بين عبدالرحيم وبين فقدان النفس والمال إلا ان يقع نظره على اول وجه من خلال هذه الصخور المنتشرة على حوافي الوادي تتبعه وجوه ووجوه ثم الايدي تحمل البنادق والعصي « والقامات » تتسام جميعا فى هذه الغنيمة الباردة ثم تعود كما بدأت وقد امحى كل اثرها وذهبت بين سمع الارض وبصرها .. وهيهات له إن يفكر باي دفاع مادام لايحمل من أداة سوى هذا القضيب الهزيل الذي يخز به حماره . . هذا فضلا عن أنه ليس من أهل الضرب والطعن فلو أتيح له الحصول على بندقية محشوة بالرصاص لأعوزه أن يتعلم أولا طريقة اطلاقها ، ثم لاعوزه أن يبحث عن الاعصاب التي تمكنه من ذلك ، فهو لم يسبق له ان عرف من الدنيا الا الساطور والسكين يضعها موضعها من الذبيحة كأمهر جزار ، ولكنه أعجز مايكون عما وراء ذلك من اعمال الدفاع اوالهجوم لاسيما فى مثل هذا الموقف الذي تطيش به الابطال فضلا عن امثاله من الرجال ! .. ولئن كان في حياة المدينة مايشجعه احياناً على الصراخ والتهديد في وجه بعض الناس دفاعا عن حق اوطلباً لمنفعة فذلك مما لاسبيل الى مثله في مكان ترخص فيه النفوس فلا نصير لها من قريب أو دركي .. وشتان مابين شجار يصير الى سلامة ونضال لايجدي فيه شيء مثل التصميم على القتل اوالموت فذلك هو الهزل كل الهزل وهذا هو الجد كل الجد !

وكان صاحبنا لايبرح يرمق انحدار الشمس بقلب واجف يكاد يخلعه الجزع ، فلما لامس قرصها سطح البحر استغرقه مثل شعور المحكوم بالاعدام تبدو لعينيه المشنقة على خطوات فتثير فى نفسه ذكريات الحياة كلها وتتجمع في خياله محاسن الدنيا حتى ليحس فى اتفه اشيائها معانياً من الجمال لاعهد له بمثلها قط ..

وكان السكون ملقياً رداءه على الارض لايكدره سوى وقع حوافر الحمار على الحجارة المركومة فى الاخدود الذي

بجتازه ، والا حسيس القطيع يتزاحم يبطء امامه وورائه وعلى جانبيه يحدوه صفير الراعي المتواصل الرتيب ، وقد اختفى حسمه المديد في فروة بيضاء من جلد الضأن المقلوب ولفح رأسه في كوفية حمراء من الصوف يدرأ بها اللسعة القاسية من مساء نيسان . .

وكـــذلك كان الفضاء من حوله غارقا في مثل ذلك الهدوء المهيب بعد ان اختفت منه تلك الاسراب من الماشية وجماعات الفلاحين يعودون بثيرانهم الى القرى وعلى اعناقهم احمال النهار من المحاريث وادوات الفلاحة .. فيحس من هذا وذاك انقباضاً يكاد يبلغ حد الاختناق . . ولما رأى العتمة تتكاثف خيل اليه كأن قوة تمسك به فتكرهه على الوقوف وجعل يدير عينيه في ابعاد الافق كمن يتربص ظهور شيء اوصدور حركة ، ثم اشار الى راعيه بالامتناع عن السير وهناك اطرق ملياً يتدبر الامر . . ولم يكن بد من استشارة البدوي ليدلي برأيه في الطريقة التي يجب اتخاذها .. أيتابعان سيرهما في هذا الليل إلى الغاية المجهولة . . ام يبيتان مكانهما بانتظار القدر حتى الصباح !! .

وكان هناك ضوء خافت يرسل بصيصه من منزل قروي على منحدر السفح القريب الى يمين الطريق فلم يلبث القروي ان اشار على صاحبه باللجوء الى جوار ذلك البيت ، ولكن عبدالرحيم ظل جامداً في موضعه لاينبس ؛ فما كان الضوء ليغيب عن نظره بيد أنه كان يرى فيه غير مايرى صاحبه ،فهو قد اصبح يخاف كل اثر للناس ويود لو يمضي عليه الليل دون ان يرى اثراً للانس .. ولبث الرجل في اطراقته لايهتدي الى خير الامرين حتى وجد نفسه مدفوعا في غير وعي الى استجابة الحاح الراعي فترك لجاره ان يسير في مؤخرة القطيع يتسلق السفح الى مصدر الضوء .

***

لم يذهب لطف القروي وحرارة استقباله بشيء من قلق عبدالرحيم ؛ فقد ارتقى السلم الخشبي الى السطح بقدمين مرتجفتين ، والقى بنفسه على فراش اللباد الذي مدلها هناك ونظره لايفارق حركة مضيفهم ، وكان يستمع الى كلمات الترحيب من القروي وفي نفسه تفسير اخر لكل حرف منها فلا ريب ان وراء ، اهلا وسهلا فكرة جهنمية ، ولا جرم ان في هذا اللباد الممدود صورة من الكفن الرهيب الذي ستحمل عليه اشلاؤهما بعد قليل الى الحفرة المجهولة ... !

وذهب القروي ليعود بطبق الطعام تحمله اليهما زوجته وعليه بضعة ارغفة من خبز الذرة الى جانب صحاف ثلاث من من (المتبلة) والعسل (والسوركة) ولم يشا صاحب البيت الا ان يبدي عذره للرجلين فذكرهما بالمثل الذي يقول (ضيف المسا ماله عشا) وكان طبيعياً ان يعتذر عبدالرحيم عن الطعام زاعماً انهما تعشيا منذ قليل اذلم يكن في مقدوره ان يكره نفسه على اي طعام بعدان خلع الجزع من نفسه كل شهوة فضلا عن كونه لاياًمن ان يجيئه الموت مجهولا في صحفة من هذه الصحاف ، ولكن هـذا لم يمنع الراعي من تجاهل ذلك الاعتـذار فمضى يزدرد محتويات الطبق بشره ، والح القروي على عبدالرحيم بملاحته حتى لم يجد مسوغا للمثابرة على الامتناع .

وفي تلك اللحظة طل البدر مشرقا بضيائه الفضي يبدد ظلمات الليل فيغمر وجه القروي ، واذا بعبد الرحيم يمسك فجأة عن المضغ ليحدق في هذا الوجه الذي بداله تحت ذلك الضوء المفاجيء ... وبغتـة بدا على القروي مثل تلك الدهشة حين وقع نظره كذلك على عيني ضيفه فانفلتت يداه عن ركبتيه وانفغر فمه قايـلا كمن يهم بالصياح ولكن الحروف جمـدت في حلقه ثم مالبث ان عاد الى سحنته الاولى ورفع عينيه الى السماء يتطلع الى السحابة البيضاء التي اعترضت سبيل القمر .. وكانت الزوجة قد اقبلت مرة أخرى لتسأل رجلها عن المكان الذي سيبيت فيه الضيفان ، فالتفت بدوره اليهما يستشيرهما ايفرش لهما على السطح أم يفضلان المنام داخل البيت خشية البرد ؟

ولم يتردد (عبدالرحيم) في الاختيار ، وقد خاف ان يسبقه الراعي الى ايثار شر الامرين فأسرع بطلب الفراش الى السطح وبعد قليل كان كل شيء قد تهيأ ، فتركهما القروي بعد ان القى عليهما التحية وانحدر على السلم . .

وكان على عبدالرحيم ان يفرغ لأوهامه . . فما هو الا

ان خلا المكان له ولرفيقه حتى خلا هو الى نفسه يستعرض المصير الرهيب الذي اصبح قضاء لامفر منه .. لقد كان أثناء الطريق يترقب الموت وفي نفسه اثر من الامل بالحياة .. أما الان ، وقد أصبح مقيداً في هذا الاسر القاهر فقد بات عليه ان يشيع آخر رجائه من الدنيا .. !

وحمل يتذكر ماخالجه من الخواطر المبهمة حين اطل عليه سراج هذا المنزل المشؤوم ، فايقن انها لم تكن سوى نذير صادق كان عليه ان يطيع جائزه فيمضي لوجهه أو يقضي الليل في مكانه من الطريق لتنفيذ مشيئة الله .. وبداله شؤم هذا الرفيق اذ اغراه بالخروج وراءه الى هذا البيت الذي شاء الله ان يكون آخر مطافها فحدثته نفسه بعمل شيء يشفي منه بعض كيده ولكنه أمسك عن ذلك خشية ان يكون فيه مايعجل بالكارثة ..

واحس في هذه الفترة حافزاً داخلياً يدفعه بقوة الى استعادة الماضي ليتذكر تلك الساعة المنحوسة التي طواها الزمن وراء عامين خلوا .. يوم اقبل هذا القروي نفسه على مطعمه ليتناول غداءه من الشواء فلما قضى حاجته ابى ان يدفع له الزيادة التي فرضها عليه علاوة على الثمن المعتاد فكان ذلك باعثاً لثورة لم تنطفىء جذوتها الا بان ينتزع عقال القروى عن رأسه فيشبعه به ضرباً ثم يحتفظ بذلك العقال كرهينة مقابل نصف « المتليك » . ولعل من سخرية القدر ان يكون العقال نفسه هو الذي يلوح رأس عبدالرحيم في هذه الساعة الرهيبة ليشهد معه خاتمة تلك المأساة .. !

ولقد كان ذلك الحادث بنظره امراً عادياً يومئذ ، ولكنه الآن لايسعه إلا ان يجد فيه صورة بشعة من الظلم الذي لاسبيل الى نسيانه . وكأن اقصر نفسه قد ابى ان يغفر له هذا العدوان فاذا هو يسوقه غنيمة باردة الى يد غريمة ليحكم عليه بما يشاء وما تمليه شهوة الانتقام .. وأي انتقام هذا ؟ ! إنه لن يكون عن طريقة العين بالعين والسن بالسن ، فذلك قانون لامحل له في (جورة الحرامية) ولكنه الموت .. الموت الذي لايعرف هؤلاء حلا سواه في مشاكلهم اليومية !..

وجعل الموت يلوح لعيني عبدالرحيم في كل شيء من اشياء هذا السطح وجعل يترقب الفاجعة في كل حركة لصدر من فناء هذا البيت وفي كل خفقة يحدثها النسيم ...

وكانت ليلة سواء لم يعرف الغمض فيها طريقا الى عيني المسكين ، ولم يجد فيها من عزاء يؤنس وحشته سوى الصلاة والتسبيح والتضرع الى الله بالقاء الحماية السماوية على ايتامه التسعة لتكون لهم خير معين يعوضهم عن رحمة الابوة ..

ولكن الليل قد تتابع في طريقه الى النهاية ، دون ان يحدث فيه حادث يعكر صفاءه سوى نباح الكلاب بين الفينة والفينة ترد به على عواء الثعالب من اعماق الوادي ، والاصياح الديكة تتجاوب بين كل فترة وفترة من الليل .. وعند مااطل الفجر الصادق على عبدالرحيم احس معه باشعاع خفي من النور يملأ جوانب نفسه فلم يلبث ان نهض قائما على قدميه كمن مسه حدس مفاجىء وامسك بمنكب رفيقه يهزه ، وما هي الا دقائق قليلة حتى كان يهبط الدرج وراء الراعي في كثير من الحذر ليبذل آخر محاولة للخلاص من هذا الاسر ، ولكن مااسرع ماخاب فاله مما هو الوجه ان مست قدمه فناء البيت حتى وجد نفسه وجها امام صاحبه القروي وقد بدا لعينيه وهو في ثياب النوم البيضاء من رأسه الى كعبيه كشبح الموت يقدم عليه بالاجل المحتوم .

ولم يترك القروي للرجل مجال التردد فأخذ يعتذر اليه عن حركته التي قد تكون اخرجته من النوم ، وقال : « لقد نهضت مع المرأة لنعد لكم طعام الفطور ، ومع اننا حاولنا جهدنا المحافظة على الهدوء فما كان لنا بد من ازعاجكم كما يظهر »

ووجد عبدالرحيم نفسه مرة اخرى مضطراً للخضوع الى رغبة غريمة فلبث في داخل البيت حتى عاد هذا وفي يمينه فرخان من الدجاج يزقزقان ، وفي يساره سكين مفتوحة ماعتم ان مدها الى الجزار القديم وهو يقول : لعلك اخبر مني بالذبح

وادرك هذا مايرمي اليه القروى فلم ير ان يزيد الطين بلة ولم يجد بأساً في ان يتنازل هذا اليوم عن عقيدته الموروثة بتحريم ذبيحة القروى فامتنع عن اجراء الذبح واقسم على القروى ان يقوم بذلك .

وسرعان مااعد الطعام واقبل الراعي البدوى يلتهم الصحاف واحدة تلو الاخرى خالطاً بين السوركة واللحوم والمسلة

والبصل ، واصطنع عبدالرحيم هيئة المقبل على الأكل فجعل يتناول اللقمة ثم اللقمة وقد خيل اليه انها الوجبة الاخيرة التي جرت العادة ان تقدم المحكوم عليه بالموت قبل التنفيذ !

ولما هم صاحبنا بوداع القروي وجده يصر على مصاحبتها الى آخر حدود المزرعة ، ثم مالبث ان غاب عنه ليعود بعد قليل وقد تنكب بندقيته الابراهيمية وشك خنجره في حزامه وجاء بحماره وهو يلوك آخر مضغة من العلف . .

☆☆☆

كانت الحوادث تتابع على نحو واحد من الابهام ، فلا يجد عبدالرحيم لها تفسيراً يطمئن اليه او يقطع بصحته فالقروي هو هو نفسه غريم الامس وضحية حماقته يوم الغداء المشؤوم هذا لاشك فيه . . ولكن ما باله يمضي معه على هذا النحو من التجاهل؟! اتراه قد اخطأ معرفته حقيقة ام انه يتظاهر بذلك ليتمكن له فرصة الانتقام في موضع ابعد عن الشبهة من بيته !! . .

أسئلة حائرة ماانفك يطرحها على نفسه فلا يعثر لها بجواب ، وما كانت هذه الاسئلة لتشغله عن مراقبة القروي وقد تقدم القطيع على حماره النشيط يشق له شعاب الطريق الى الجادة العامة . . فهو أبداً يراقب كل حركة وسكنة منه ، وهو ابدا يترقب اللحظة التي يتفرغ بها لمحاسبته . . وان تطول هذه المحاسبة على التأكيد وان تحتاج لغير طلقة واحدة تندفع من فوهة هذه البندقية فتضع الحد لكل هذا التساؤل . ولم يشأ عبدالرحيم ان يلح على غريمه بالعودة حذراً من استعجال المكروه ؛ ولم يشأ كذلك ان يصرفه عن صحبته الذي لازمه طوال هذه المرحلة اذ كان يجد نفسه هي ايضا بحاجة الى الصمت لتفرغ الى الاستغراق في نوازعها . . . وكانت المسافة قد بلغت حوالي الميلين عندما وقف القروي فجأة عن المسير بانتظار وصول صاحبه حتى اذا دنا منه مد اليه يده لمصافحته فلم يجد هذا بداً من المقابلة فمد يده اليه وقد اخذتها رجفة ظاهرة واستولت عليها برودة لاسبيل الى اخفائها .

ووقف الرجلان هنيهة يتبادلان نظرة طويلة جامدة وعندما همز القروي حماره للعودة كان قد تم لعبد الرحيم اليقين بان رحمة الله قد حجبت امره عن غريمه لم يفطن الى حقيقته

أَدَبُ التَّارِيخ

للشاعر المؤرخ الشيخ علي البازي

وقلت مقرضاً ومؤرخا طبع ديوان الاستاذ الكبير السيد محمود الحبوبي سكرتير جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف الاشرف عام ١٣٦٧ هج

« محمود » جاء بمعجز   من نظمه وبنات فكره
شهدت له نظراؤه   فيما اتي ورجال عصره
ضاهى السماك مكانة   وحكى الامام (سعيد) دهره
نزغت لنا بمن بعده   ارخ « ذكا ديوان شعره »

وقلت مقرضاً ومؤرخاً طبع ديوان المرحوم الشيخ محسن الخضري جد جامع الديوان الاستاذ الشيخ عبد الغني الخضري معتمد التحرير الثقافي في النجف سنة ١٣٦٧ هج

(عبدالغني) الشهم ادى الى   العرفان والآداب فرض الجهاد
قد خدم التاريخ في سعيه   وفاز بالحسنى ونيل المراد .
حقق امنية من قد مضى   وماله يصبو من الاعتماد
اوجد ديوانا حوى كلما   يعجب من مدح ومن انتقاد
يسنده لجده ذي الحجى   (المحسن) المفضال سامي العماد
اذ كان في تقريضه والرثا   من قبله عالج وضع البلاد
وجاء من بنات افكاره   بآي سحر زانها الاجتهاد
ساجل من في عصره ساجلوا   فطاحل الشعر واهل السداد
(فالمحسن الخضري) في شعره   حفيده ارخ (غني اشاد)

ولم يتنبه الى شخصه ، وغمرته نشوة من الفرح بالحياة فالتفت الى صاحبه يستوقفه ثم يسأله في الحاح كثير أن يتقبل من قطيعه كبشين هدية ؛ ولكن القروي مالبث ان واصل طريقه وارسل قهقهة مدوية مثيرة وهو يقول : « كلا ما اعتدنا ان نأخذ ثمناً للضيافة يا . . عبدالرحيم » !

وجمد لسان الجزار لحظة في حلقه امام هذه المفاجأة . . لقد ثبت له ان الرجل لم يكن قط على جهل من أمره . . !

طرطوس   محمد مجذوب